

شوتارو وستافيلي

وملحمة الفارس في آهَاب النمر

من
الادب
العالمي

نزار خليلي

ذات يوم منذ ست سنوات كان لي لقاء مع الشاعر الجورجي المعروف يوسف نونشويلي في مقر اقامته مدينة تيبيلسي عاصمة جمهورية جورجيا السوفيتية .

وتحدثنا عن الادب ، عن الشعر ، عن الهموم المعاصرة ، عن الحداثة ، والتقليد . ومما قاله نونشويلي : « ان أحب شيء الى قلب الرجل الجورجي هو السيف وأشعار شوتا روستافيلي » . فسألته : « من هو شوتا روستافيلي ؟ » قال : « هو صاحب ملحمة (الفارس في آهَاب النمر) » وما ملحمة الفارس في آهَاب النمر ؟ » .

لعله حدثني عنها ساعة أو أكثر من خلال مترجمين بين الجورجية والروسية والانكليزية ... حتى وجدته تواقا الى قراءتها ،

ووجدتها غارقة في مخزون مشاعري اتحسر عنها نقلت الى اللغات الحية الاخرى كالفرنسية والانكليزية والروسية والالمانية واليابانية ... وغيرها ولم تنقل الى العربية ، حتى جاءتنا الطبعة العربية الآن ، وقد ترجمها الاستاذ نزار خليلي وبذل فيما علمت جهودا كبيرة في مجال امانة الترجمة والتدقيق على الأصل ، والاستعانة بمختصين أكاديميين جورجيين لتكون الترجمة لائقة بمهمتها . واننا اذ نقدم هذا العرض الممتع الذي كتبه المترجم نأمل ان يكون دعوة منا الى القارئ العربي ليضيف الى مكتبته عملا أدبيا كلاسيا هاما .

● عبد النبي حجازي

اصنع أنا روستافيلي هذا العمل ببرافتي وبدافع من قلبي ، لتلك التي تجرحني ، وقد خضعت لها جيوش الجبابرة . لقد وهن الجسم مني وليس للمحبين دواء . فاما ان تشفيني واما ان تسلمني الى الموت والقبر . بهذا يرد على تساؤلنا عن كلفه تأليف الأشعار ، انه قلبه وميتاه .

فلقد أحبها المجنون . أحبها وهو يعرف حق المعرفة ان الوصول الى حبيبته الملكة أمر مستحيل انها ملكة ، وكان يمكن ان يامل فيها ، ولكنها متزوجة وهذا يجعل الامر اكثر من مستحيل . لكنه يحبها . لانصرف له اصلا لكي نقارنه بها . هل هو نبيل ام من العامة ؟ لانعرف من شوتا اكثر مما قاله هو

جمع الملك وزراءه وكبار رجال مملكته وقال لهم : اطلب منكم النصيح فالامر يستحق المشورة حين ترى الوردة زهرها يذبل ويخف تمضي لكي يأتي غيرها الى حديقة الورد الصغيرة وبعد غروب الشمس يكتفني ليل بلا قمر ، فلام .



تاريخيل مع افتانديل على التعاون للبحث عن المحبوبة بعد ان يعود افتانديل الى مملكته لاستئذانها في مهمته . فتوافق تيناتين وتعده بالزواج عند عودته . ويرجع افتانديل الى تاريخيل ويذهبان معا الى حليفهما الملك بريدون . ويتوجه الثلاثة مع ثلاثة فارس الى بلاد السحرة ، ويباغتونهم ويقتلون ثلاثين الفا منهم مستخدمين اسلحة سحرية .

أت الان بارادتي السنية ملكة على العرب وهكذا اكون قد وضعت الحكم بين يديك . فعالجي الامور بعزم وحزم وكوني متأنية في تصرفاتك . تنير الشمس الورد وأعشاب الحقول سواء بسواء لانتواني ابدا عن فعل الخير ولا تفرقي بين قوي وضعيف . والمنة السخية تلمس الضمير وتجعل العاصي مطواعا . فامنحني بسخاء فالبحر بجبروته يأخذ ويمنح . وجدان الملوك كشجرة حور في جنة عدن والكريم يخضع الجميع حتى اللثام والمائدة الطيبة مأكولة اما البخل فلا ينفع في شيء . ماتعطينه يبيت لك وما تمنعيه يضع منك .

انها وصايا ونصائح لاتصدر الا عن ذهن متوقد وفكر رفيع ، وليس هذا فقط بل هو في وصيته التي ساقها على لسان افتانديل الى الملك روستفان يقول : ان الكذب هو النبع الذي تتدفق منه الماسي ماذا ينفعني عقل فلسفي اذا لم يؤزره عمل ؟ ويقول : ان الذي وهني الحياة جعلني قادرا على العدو انه القدرة المطلقة التي تصدرك .

لقد عانيت المتاعب عبر السنين وما
انا الآن اذ لم من نهائى وقد اموت غدا
او بعد غد هذه ارادة دوران الكون
ماقيمة النور اذا غشي خطاه الظلام ؟
فلنظف اللجاج لابنتي التي فاقت الشمس
بالحسن .

فوجيء الوزراء باقتراح الملك .
لقد كبر الملك فعلا ، وما له من الاولاد
غير ابنته تامار لترث ملكه . فلماذا
يستعجل ؟ يبدو انه يريد ان يطعن
على ملكه قبل موته ، فليس في نبله
الاقطاع وفاء . فقد يحدرون بابنته
ويسلبونها حقها ، فتفكيكه اذن في
محلته . واجابوه بعد التشاور :

لقد فاجأنا باقتراحك يا جلالة الملك
ان وردتكم لم تذهبل بعد ، واعلم بان
خطل رايك خير لنا من سديد راي
غيرك ، على أننا من واجبنا ان نعمل
برغبتك التي تمنانا فلكم فالحخير فيما
اختاره الله لتوج ابنتك العنساء
كالمسك ملكة .

انها انى واكن الله خلقها في الدنيا
للتك .

لقد قلنا في غيابك ونقول الان
بحضورك ولا نخفي عنك ان صفاتها
السامية تعادل اشعة الشمس .
سر الملك بعدما سمع موافقة
مستشاريه ، واعلن في البلاد اقامة
الاحتفالات وحدد يوم تتويج ابنته ،
ودعا كل النبلاء وافراد الشعب ،
وجعل هذا اليوم يوم عرس حقيقي في
البلاد .

كان دافيد ربيب الملك وقائد جيشه
من اكثر الناس ابتهاجا بهذا التنازل ،
لانه كان يحبا تامار جدا جدا ولا
يستطيع الاقربان منها فهي ابنة ملك
قائسة في خدوها ، لا يراها الا
الاقربون . اما الان وبعد تتويجها
ملكة ، ستحظر بحكم عملها الى
الجلوس يوميا على العرش ، فبراهما
ويجزى هيامه بالاكتفاء بالنظر اليها
على الاقل .

ترجمت تامار على العرش وراحت
تدير دفة الحكم بحنكة وعزم اذهشت
نبلاء الاقطاع ، فطمعوا فيها ، ولكنها
لم تهرههم اللغات اول الامر . ثم
اكتشفت بعد موت ابيها مايبينونه
لها ، من تزويجها من احدهم ليضعوا
- ايديهم بعد ذلك - عن طريق هذا
الزواج - على الحكم .

فبادرت الى سد الطريق عليهم
بعرض الزواج على دافيد . ولم لا ؟
انه ربيب ابيها ، وابن نبيل وقائد
الجيش . وفوق هذا هو جميل وسيم ،

من نفسه من انه من قرية روستافي ،
اذ لم يترك وراه اي اثر او وثيقة تدل
عليه ، ومع ذلك هو يجب الملكة ويبرر
حبه بقوله .
يجب على المحب ان يكون جميلا غير
مشوه ، مثل الشمس الساطعة وان
يكون عاقلا كريما متواضعا نبیلا
ومطوقا .

ويجب ان يكون حسن النيان حكیما
متسامحا جسورا اغلب في الحرب تری
هل هذه هي صفاته ؟ ربما ، ولكن هل
يعني بكلمة نبيل انه من النبلاء ؟ ربما
ايضا . ولكن لا يوجد ما يؤكد هذه
الأقوال . على ان اهم ما فيه هو انه
كتم حبه في قلبه ووصف حبه بقوله :
اول واجبات المحب ان لا يوح بالام
حبه .

وان يخفيها في سره ، وان يفكر فيها
دائما وحده
يحلم ويحوت من بعيد ، ويحترق من
بعيد نيار حامية يحلم فضيها
ويحترقها باجبال .

لقد كتم حبه ، ولكن ، هل يخفي
الحب ؟ لا ، لا يخفي الحب ، ومهما
يكتلم بفتضح يوما ، وانفصح فعلا
بالرغم من موصلته .
يجب على المحب ان يكتلم حبه في
ضيمه ولا يحق له ان يتبجح به ويجعل
محبوبته العار . لا يجوز له ان يظهر
مشاعره او يوح بها لأي احد ويجب ان
لا يكتشفها انسان .

ليكن له الالم عبدا وليحرق نيار
الحب .
الفتضح حبه رفضا عنه ، وادركت
الملكة بشعور الألى عاطفته ، وفضبت
وطردهت من بلاطها ولفته الى خارج
البلاد .
خرج من المملكة ذليلا منفيما وهو
يقول :

عندما يبكي المحب على محبوبته
يكون بكاءه مسوقا .
فلينشبه بفارس تائه يزينه التجوال
وحيدا .
فلينذكرها دائما ولتنبئ افكاره معها
خير له ان كان بين الناس ان يبسفي
حبه سرا في داخله .

هكذا خرج شوتا روستافيلي ابن
القرن الوسطى - طالما عاش الملكة
تامار . فيكون قد عاش بين النصف
الثاني من القرن الثاني عشر والنصف
الاول من القرن الثالث عشر - خرج
من المملكة دائما على وجهه لا يعرف له
سقطا .

بنائيف اشعار ، انه عليه ، ويتباهى
بما صنعه ويقول ببرامتي ، ويزيد
عليها .
جلست انا روستافيلي مطعون القلب
بنبله
اصبح مفامرات كانت حكاية حتى الان
في منظومة كعقد من اللؤلؤ
فهو في اقواله يحكي من نفسه بكل
اعتزاز واثقة ، يخاطب الناس وكأنه
معلم يعلمهم معنى الحب وطرائقه
والشعر وانواعه فيبين ان
الشعر قبل كل شيء فرع من الحكمة
الالهية .
يقبله الرباني ويعرفه وهو منعمة
لسامعه .
وهو يسر الرجل الفاضل ايضا ان كان
نبیلا .

ميزة الشعر انه يستطيع ان يعبر عن
كثير باختصار .
ساق على مسافة طويلة يبين
اصالة الجواد .
وتشعر برأه اللاعب ، عندما يرمي
الكرة .
كذلك الامر مع الشاعر ، تحكم عليه
اشعاره الطويلة .
فاذا قصرت وزاغت كلماته ضاع
شعره .

انه يوزع بالأشعار الطويلة لان
ملحته كلها التي تتألف من الف
وشانحة بيت تقريبا هي من النفس
الطويل . وما هو طول النفس هذا ؟
انه يشبه البحر الطويل في الشعر
العربي . يقاس عروض الشعر العربي
بالتفعيلات . فاذا قطعنا بيت البحر
الطويل الى مقاطع صوتية لوجدناه
يحتوي على ٢٨ مقطعا صوتيا ، أي ١٤
مقطعا لكل شطر . اما بيت النفس
الطويل فيتألف من ١٦ مقطعا صوتيا
مقسومة على شطرين في كل شطر
ثمانية مقاطع والشطر مرتب ترتيبا
موسيقيا نحو الجرس ، فهو كما في
البحر الطويل العربي :

فعلن فاعلن فعلن فاعلن
نحولها الى مقاطع صوتية

فغرى الشطر الواحد ينقسم الى مقاطع
صوتية عددها
٤+٣ = ٧
٤+٣ = ٧
كذلك الامر في شعر روستافيلي
فالبيت ذو المقاطع الستة عشريوزع
كالتالي :
٤+٤ = ٨
٤+٣ = ٧
٤+٣ = ٧
هذا شكل اول

ويستولون على بلادهم ويحزرون
لسنان داريجان ويعودون الى مملكة
بريدون حيث تزف لسنان الى تاريسيل
ثم يتوجه الجميع الى بلاد العرب
وهناك تزف تيلالين الى افتانديل
ويعود الملك الاخران الى بلادهما
ويعيش الجميع في ألفة ووفاق .
يبدو من موجز القصة انها عادية ،
وبدعي شوتا انه اقتبسها من اسطورة
فارسية ، لكن يتضح من وقائع
الأحداث انها تشبه الى حد كبير قصة
الملكة تامار . ولا يهنا هذا بقدر
ما يهنا ما في سطور القصة الطويلة من
عبر وحكم ووصايا تجعلنا نظن انها
كتبت في القرن العشرين ، مع ان
صاحبها كتبها في القرون الوسطى زمن
تقضي الجهل وتسلط الاقطاع وتجزر
الملوك .

لنستمع الى بعض وصاياه على لسان
روستفا الى ابنته تيلالين :

كائن على الارض
انه الاله الخالد ذو العرش المجيد
الذي يضع حدا لكل نهاية
وهو يقدر في كل لحظة ان يجعل
الواحد ملة والملة واحدا
لا شيء يجري في الكون بدون امر الله
لو لم يبت الشمس في مدارها لما عاش
القرنفل والورد
انه الجمال البديع الذي تهفو العين
الى النطق اليه .
ومن هذه الأقوال كثير مما لا يتسع له
المجال الان شدتني الى شوتا
روستافيلي وملحته فترجمتها الى
العربية وكنت المبادئ في نقل هذا
الامر الشين . اذ انها ترجمت الى اكثر
اللغات اهمها الفرنسية والانكليزية
والألمانية والروسية واليابانية
والفارسية والاسبانية وغيرها ، كما
ترجمت اكثر من مرة في بعض
اللغات .

اعترافان كروين كلث

الا هني
الى قلبي
رياح الموت والجذب
انا المسجون في هني
انا المطعون في صحبي
انا المرهون في زمن
يصب الموت في دربي
انا ماعدت عمرو التغلبي
انا من تاه في الصحراء

عاد اليوم
ليبكي نخوة العرب

الا هني
وحين يقارب العتم المدى
جبين النار يسكرني
ونسكرني رؤى الشهب
فهاتي الكأس فارغة
بدمعي املا الكأس التي فرغت

شكرا
عندما يقرأ

ويشجع قوي يرهبه الناس ، فهو بصفاته هذه خير من يحميها ويثبت دعائم ملكها ، ونفذت ما أرادت ، وتزوجت دافيد الذي طار ليه من الفرح وطير صواب اللباء الآخرين من الأسى . وعاهدها على الوفاء والاخلاص .

لكن ، لم تكتف تamar الذكية الحاذقة بما فعلت بل أرادت تأليف نساء الاقطاع حولها ، خوفاً من غدرهم ، فقربتهم وأحسنن اليهم وأقنعتهن بضرورة تعاونهم معها ، وحشد رجالهم مع جندها لتشكيل جيش قوي يرهب الأعداء الطامعين بالبلاد . واقتنعوا وضمته رجالهم الي جندها فصار جيشاً قوياً زاد عن البلاد أعداءها . فلما استتب الأمر وأمنت حدود مملكتها التفتت الي الداخل تجري اصلاحات اقتصادية واجتماعية وعلمية حتى أصبحت من أحسن الممالك في العالم . وكانت السبابة الي تأسيس أكاديميات العلوم وبلغ عدد الأكاديميات العلمية في عهدها ثلاثاً ، في وقت لم يكن الغرب يعرف عنها شيئاً . وذاع صيتها وصيت بلادها المزهرة في العالم ، وجاءها وهي في عز سلطانها شاب تلقى العلم في اثينا يطلب عملاً . فلبته وهي الحريصة على العلم والعلماء وعينته بعد اختياره كبيراً لأبناء خزانةها . وكان الشاب عند حسن ظنها به ، متقانياً في عمله وحاز على ثقته . كان هذا الشاب واسمه شوتا ذا همة عالية ، وثقافة غزيرة وشاعراً عبقرياً لفت انتباه سياده ، فقربوه وجعلوه من خاصتهم . فراح يتردد عليهم وخصوصاً على الملكة باستمرار ، يحدثها عن علوم العرب والفرس واليونان وينشد لها من أشعارهم ، ثم من أشعاره ، كانت أشعاره تتضمن معاني خفية عن حبه ،

مستقراً ، لقد فقد العز وفقد المحبوبة . لم يهتم لفقد العز بقدر ماهتم بفقد الحبيبة . وتقلب في بلاد العرب يبحث عن مستقر له يقضي فيه بقية حياته ، فمقادته قدماء الي القدس الي حيث يوجد دير الصليب الجورجي . فمطف عليه رهبانه وقبلوه بينهم ، وبدا أن كل مايدل عليه مفقود ، لذا استدل عليه عايرسوه من الرسوم والكتابات المنقوشة على أحد أعمدة الدير ، وعاش شوتا روستافيلي في هذا الدير كواحد من الرهبان . لكنه يختلف في أنه كان رجل بلاط ونفي ، وكان عزيزاً فذل ، وكان محبا طعن في حبه ، ومع ذلك لم يتخل عن حبه بل ظل يبكي محبوبته حتى آخر يوم من عمره . وفي غمرة حزنه هذا عن له أن يكتب قصة حبه . وانكب على الكتابة يحكي قصته بشعر عظيم وهو يبكي ويبكي أن يخلد بقصته ذكرى محبوبته الملكة Tamar ويؤكد ذلك بقوله :
عندما أنشد للمكتنا تamar تنهمر دموع غزيرة من دم
من أجلها ، أنشد مدائح السامية . كعبير اتخذت بحيرة من العجر السبجي وكريشة اتخذت قدها فليخترق قلب من يسعم ، سهم بشكل قلب .
كلفت بتأليف اشعار حلوة الجرس ، وأمرت بالتغني بأهداياها وحاجبيها وشعرها ومنها ،
يكسر الصخر بمطرقة من الماس .
لكن من كلفه بتأليف الأشعار ؟ لقد خرج من بلاده منفياً مطروداً . فمن الذي كلفه ؟ هناك أحد من اثنين ، أما أن يكون الملك هو قلبه أو يكون الرهبان الذين عاشوه ، مهما يكن من أمر ، ففسري ذلك في الاشعار التي كتبها ومدحها قبل أن يمدحها غيره :

وشكل تان :
0+2 0+2 16=0+2
أو :
2+0 2+0 16=2+0
وأهمها :
2+0 2+0 16=0+2
أو :
0+2 0+2 16=2+0
هذه التتميمات وهذا الطول من ابيات الشعر كتب قصة الفارس في اهاب النمر ، ومع هذا الفن الفريد يحق له ان يتباهى ويزهو بشعره .
ولكن ، ماذا جاء في ملحمة ؟ هل هي قصة حبه حقاً ؟ ربما ولكنه استعار شخوصاً مختلفة وأماكن بعيدة اختار لها ان تكون بلاد العرب تأديبا وحرصا على سمعة سيده تamar . اليكم القصة :

روستفان ، ملك على بلاد العرب ، يتنازل لابنته تنانين عن العرش . وفي اليوم التالي لحفلة التتويج يذهب روستفان مع قائد جيشه وربيبه أفانديل الي الصيد . هناك يريان فارساً يرتدي ثياباً من جلد النمر يبكي عند ضفة النهر . أراد الملك روستفان ان يعرف سره ، فأرسل واحداً من غلمانہ ليستطلع اخباره ولكنه لم يعأ به . غضب الملك وارسل غلمانا يقبضون عليه . لكن الفريب صرعهم واختفى . حزن الملك وعاد الي قصره . علمت الملكة تنانين بسبب حزن ابياها فأرسلت قائد جيشها أفانديل للبحث عن الفارس الفريب . يذهب أفانديل ويعثر بعد ثلاث سنوات على الفارس ، ويعرف منه انه ملك على إحدى مقاطعات الهند . خطف المسجرة حبيبتة ابنة مس المقاطعات الهندية الاخرى ، فهام على وجهه مجنوناً بحبه ترافقه عصمت وصيفة حبيبتة المخطوفة نستان داريجان . فيتفق ملك الهند

ذراعي جسرهم وأنا أسير بغير أقدم
الا هبي
خذيني كيفما شئت دروب الليل
ماعندي سوى أمي يجرحها زناة الليل
يدمي جرحها المفتوح بين المالكين لها
وبين المالكين سريرها النفطى بالوصم القديم
فأقبلني يامن اردت اليوم لقيها
فباعدي العدا عنها
تعالى واجلبي للشرب جهجمة
لاجل شهادة في قرننا العشرين صبي
خمرك المسفوح في الردهات والحانات والكلمات
ياأخت الخنا هبي
وصبي في فم الهامات
ماشاء الضنى صبي
ابا هند اني اتيتك عبر ارتداد العصور
سيوفي على الضفتين تتوح وقد ملأ الطيل حافاتها
اتيت لاهديك أمي
فلا خوف حيث تدور الانوف دوائر
فأخذت المهلهل تيحث عن عمته
والزير مات لقد صار عظما سحيق
يشق علي فراق المآذب بين السديين
الخورتق
تغلب شنتها الوهم مالي وتغلب
هذي القنبيلة قد كثر الحزن فيها
وطالت اسننها الغيم حتى بكى الغيم
وانظمر الناس تحت ركाम الوجود
فجئت الي ملك استجير بطيب نداء
واعلن الف اعتذار على ماجرى
ابا هند راح الذي راح لم يفته الله
ماعاد فينا سوى عائر يركض القم
الوجوه تعود بلا مآثها والعيون معها
والسنة القوم حائرة قطعت بين
غيمظ السنين
فليسيت بعد عمل جري
البعيث على المصرة

ووقد العيون غدا الهزم في
الفاجرات
وتصفر اوجه كل المرائين لا
ولكنهم يذكرون دخان قرالا
فيأتون قبل الصلاة
لهم وحدهم مسجد العنابات
أسجد فوق النعال واعلن
اجري وامضي
اتيت لقصرك اهديك اهلي و